

حركات الإصلاح الإسلامية

٣ - أزمة إسلامية

للدكتور علي حسن عبد القادر

دكتور في الفلسفة والعلوم الإسلامية من جامعة برلين
ومدرس بكلية الشريعة

تقوم على قمة حركات الإصلاح الحديثة شخصية ليس لها في الواقع دخل أو اتصال مباشر بالحركة الوهابية التي أسلفنا الكلام عنها ، وقد وصف هذه الشخصية بحق جولد زيهر « بأنها صورة غريبة ظهرت في الإسلام أثناء القرن التاسع عشر » . ذلك هو جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٥٧) « الذي كان فيلسوفاً ، أديباً ، خطيباً ، صحافياً ، وفوق هذا كله كان ... سياسياً »^(١) والذي قال عنه براون في كتابه الثورة الفارسية : « بأنه أثر خالد باق على الأجيال »^(٢)

ولقد رحل جمال الدين من أفغانستان وجاب العالم الإسلامي وأوربة ؛ بل ومن الممكن أيضاً أن يكون قد جاب بلاد أمريكا

(١) دائرة المعارف الإسلامية جزء ١ ص ١٠٥٢ . وراجع أيضاً كتاب الخلافة للدكتور السهوري بك La Cabhot. P. 506
(٢) E. J. Broune, The Persian Revolution

نطلب أن يصادر الميزان المختل ، وأن يحجر على الناس استعماله ، وندعو « جماعة كبار العلماء » أن تصالح على ميزان صحيح مضبوط ، من كتاب الله وسنة رسوله « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ! »

ولكن عفوا فقد نسيت ! نسيت إلى عالم صغير ، ولا يجوز أن يتناول الصغير إلى مقام الكبير ! . فهل من عالم كبير يحمل على لواء هذه الدعوة فيأخذها بقوة ، ويأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها ، قبل أن تأخذنا الأحداث ، وتأنينا سنة الله في النافين ؟! « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن

من الخاسرين »

محمد المصطفى

وهو يعتبر - بدون شك - أباً لأفكار الجامعة الإسلامية : Panislamamische Jedanken على ألا تخلط بين أغراض هذه الجامعة وبين ما كان يحاوله عبد الحميد من انقلاب في السياسة العملية . ومن الحق أن نقول : إنه كان أول من دعا إلى اتحاد ساسة المسلمين في وجه أطماع الغرب . ولكنه كان مع ذلك يحس في قرارة نفسه بالحاجة الماسة لبناء جديد من العالم الإسلامي تدخل فيه عناصر حرة ، وبقطع ما بينه وبين التقاليد الموروثة من صلات وأواصر . ونظراً إلى أن جمال الدين الأفغاني كان ذا نزعة صحافية ، وكانت له وجهة نظر سياسية في الغالب تؤثر فيه ، ونظراً إلى أنه لم يكتب كثيراً ، فإنه من الصعب أن نحقق تأثير هذه الشخصية الهائلة فيمن حولها . ورغم ما أثاره في الغرب من ضجيج^(١) ، فإنه من الصعب أن نستشف دخيلة نفسه ولن يحصل هذا أيضاً ، فإننا لا نعرف من أين جاءت هذه الدوافع . بل إنه لم نصلنا تأثيراته في شكل محدد لأن تأثيره كان في الغالب في ثوب الملم والحرك أكثر مما هو في ثوب الكاتب ؛ ولهذا فإنه من الخير لنا أن نحكم على الثمار التي نضجت على يديه . وهنا يثبت لنا أنه يرجع إليه الفضل في تلاميذه الذين هم كبار رجال الإصلاح وذوو اليد الطولى فيه وهم يشكرون له كل ما عندهم من خير

وعند ظهور جمال الدين الأفغاني كانت تتردد في الهند بعض أصوات ، ويدور القول حول إصلاحات آخذة في النهوض في وجهات وأشكال مختلفة ، ولكننا لا نعرف بالدقة مدى ارتباط جمال الدين ببدء هذه الحركة في الهند وهل كان له فيها بدء أو كان الأمر بالعكس ، فهما من ناحية للتأثير بتلاقيان ممّا عند خطر واحد ، وفي العصر الحاضر مع هذا يعتبر جمال الدين عند الشباب في الهند المهد للعظيم للطريق

وكانت تربة الهند في أوائل القرن التاسع عشر قد مهدت من ناحية تأثيرها قليلاً أو كثيراً بالوهابية العربية ، وكانت الحال في الحقيقة تبدو متفقة معها ، ولو أن شكل الحركة الوهابية الشعبية

(١) راجع على الأخص معاورات ، بيان في ختام كتاب (الإسلام والملم) R. l'Islamisme et La Science

المتحشة لم تكن هي التي غذت الحركة الهندية الإسلامية في روحها فإن حركة التجديد في الهند صدرت عن طبقة غير مثقفة ثقافياً عالياً، وكل ما هنالك أن هذا التقابل بين هذه الحركة والحركة الروائية يمكن أن تشرحه وتفسره هذه اليقظة التي جاءت من تلك الهزة العنيفة التي صدرت من المركز الإسلامي بالبلاد العربية وقد ظهرت حركة الإصلاح في الهند للبيان في شكل حركة عقلية على رجال مثل سيد احمد خان مؤسس مدرسة عليكره (المتوفى سنة ١٨٩٨) قديماً، ومن أمثال أمير علي وخودا باخشا حديثاً، وقد تأثر هؤلاء الهنود تأثراً عميقاً بما هو ظاهر ملموس في وطنهم على الأخص من تأخر المسلمين وما أصيبوا به من ضرر بالغ من جراء جمودهم إزاء المدنية الحديثة، وهم على العموم — مخالفون في هذا مجال الدين — لم يندفعوا بدافع سياسي، بل أنهم اعتبروا خضوع الهند للإنجليز أمراً ضرورياً وأمرًا مرغوباً فيه لذلك؛ كما أن حركتهم لم تصدر أولاً وبالذات عن أفكار دينية افقنوا بها. وكل ما هنالك أنهم عرفوا الثقافة الغربية واتصلوا بها، فقاموا بحركتهم تحت تأثير تأخر المسلمين. وإنهم كسليمين محبين للإسلام — كما أحسوا — كانوا يرون أن الإسلام الصحيح الخالص لا يقف في طريق الثقافة الحديثة بأي شكل، وأنه في الأصل هو الدين الوحيد صديق العلم والتقدم. وعنوان «الإسلام الصحيح» ولم ينكروا أن الإسلام على ما هو عليه في الوقت الحاضر فيه ما بجانب الإصلاح. وقد جاء هذا كما قالوا من أن البحث المستقل في مراجع الدين الأصلية — يستون الاجتهاد — غير جائز، وأن الناس خاضعون للتقليد الأعمى من جراء الإجماع الذي طغى على الإحساس وجعل الفقه جامداً مقيداً، وأن أفكار المتأخرين سويت بتعاليم الرسول^(١)، وقد رفضوا الأخذ بأحاديث كثيرة وتمسكوا بشدة بالقرآن الكريم وقد اعتقد المصلحون بالهند — وليس ذلك بصحيح دائماً — من الناحية التاريخية — بالمعزلة الذين صورهم بأنهم المفكرون الأحرار وأنخذلهم كمثل عليا في التجديد. وسماوا أنفسهم أحياناً

بطبيعة خاطر «بالمعزلة الحديثة» لأنه فيهم قد ظهرت إلى الحياة أغراض هذه الفرقة الإسلامية الحرة وجودها ويظهر من طبيعة الأشياء أنهم أخذوا تعاليم من طريقة هذه المدرسة القديمة مما لم يفكر فيه بعد فن هذا فكرة «تطور للفقه» للتاريخية فهم — أي المعزلة — يرون بالنسبة للأعمال الإنسانية أنه لا يوجد قانون دائم وإن النظام الإلهي ينظم سلوك الإنسان نتيجة للتقدم والتطور، وأن الله نظم أوامره ونواهي في شكل متدرج متطور من القوانين^(٢)، وقد بحثوا باجتهاد وذكاء في شرح المعاني والأغراض في القرآن والحديث الذي يستعملونه إذا خاف ذلك أفكارهم في سبيل التدليل على أن الإسلام للصحيح يحض على العناية بالعلم بلا قيد ولا شرط ولا يخالف نتائجهم، وهنا أظهروا حقاً صورة للإسلام كمثل أعلى. على أن هذه الطريقة التي استعملها رجال الإصلاح وإن كانت لا تقوى أحياناً على النقد التاريخي، فإنه مما يستحق للتقدير حقاً كفاح هؤلاء الرجال في قضية أضاءت في نفوسهم، والهم في الحكم إنما هو الغاية لا الطريقة، وهي ليست إلا محاولة لتحرير الإسلام من قيود المدنية للقرون الوسطى

والأمر الغريب هنا هو أن الخطوة الأولى لهذه الغاية الجريئة وهي رفض للفقه الإسلامي لم يبق بها على أساس ثابت مأمون ولم تأخذ اهتماماً عملياً؛ ويظهر أن حالة التقوى تمنع من ذلك ولكن بجانب هذا قد مهد الطريق الآن لفهم التاريخ فهماً واضحاً لتقبل الفكرة التي تقول أن للنظم المتغيرة تاريخياً لا يمكن أن تبقى سائدة دائماً، وفي آخر الأمر يكون قد تم الانتصار على مبادئ الضعف، وأكملت على الأقل خطوات خطاها المدافعون الأحرار عن المعارف الدينية التاريخية^(٣)

هذه هي كلمة الأستاذ هريمان عن حركة الإصلاح في الهند، أما حركة الإصلاح بمصر فوعدها بها المقال الآتي إن شاء الله تعالى

على مسود فهد القادر

(١) راجع في ذلك ما قاله أمير علي في : Religion Ancient And Modern (London Archibald Constable & Co. 1906

(٢) Becher, Islam, 3, 198

(٣) S. Ameer Ali. Spirit of Islam (Ausgabe Vou 1923)

S. 183 u. 237